زنبقة الغور

رواية اجتماعية متنابة

بقلم

— ملخص ما نشر سابقاً —

فرّت ساره من بيت ابيها الجمّال في مدينة جنين لحادث اصابها واضغط زوجة ابيها عليها وظلمها . فاقامت في قرية في مرج ابن عامر لتستر عارها ريثما يتقضي امرها . فولدت طفلاً ميتاً ثم رحلت تقصد ابن بلدها المعلم الياس بلان في قرية صفوريه فعلمت انهُ غادرها وترهب في الناصرة فقصدته في ديره طالبة مساعدته فوضعها في الدير تخدم . ثم استهواها فاستمالت اليهِ . وفرّ بها من الدير الى قرية كفر كنا وقد وعدها ان يتزوجها ولكنه تركها هنالك غادراً بها وهرب الى لبنان . فوضعت ساره بنتاً وجاءت بها الناصرة فنبذتها عند باب دير الايتام . وراحت تفتش عن خادعها في لبنان وسوريا فلم تجده فعادة بعد سنين طويلة الى الناصرة فراها القس جبرائيل مبارك في باب ديره فارتعش وعرف بها الفتاة التي اغواها في صباه يوم كان ابوها جمالاً يخدم اباه في جنين . فكتمها نفسه ورق لها فادخلها الدير لتخدم فيه . وهنالك تعرفت بفتاة تدعى مريم تخدم في دير الايتام فحنت لها جوارحها . وبينما ساره نائمة اثناء رعيها المواشي لدغتها حية واشرفت على الموت . فاستدعت القس جبرائيل واعترفت له وتوسلت اليه ان يستدعي مريم لتودعها واوصته ان يسأل عن اصلها و يعتني بها فوعدها القس خيراً وكشف لها نفسه مستغفراً عما جناه عليها في صباها . ووضع القس مريم تحت عنايته حسب وصية ساره فسألها عن حياتها في الدير فشكت اليهِ ما تقاسيه هنالك من الضغط . فرق لها وذهب الى دير الايتام فحابر الرئيسة بشأنها وخرج حانقاً مستاء مما شاهده من فساد ملاجئ الايتام . ولكن مريم لم تستطع احتمال حالتها فهربت من الدير في اليوم التالي ولجأت الى القس جبرائيل فادخلها تخدم في بيت اخيهِ الوجيه يوسف افندي وزوجته الست هند

(الفصل الرابع)

مثل الست هند من النساء تدعى عند العرب الاخصائيين امرأة زَنمرَدَة . ولكننا نكتب لابناء العرب لا لاجدادهم ولجمهور الناس لا للاخصائيين . لذلك نتحرى البساطة في الوصف والتعبير ولكن اللبيب اذا تدبر هذه اللفظة العبلة الرجراجة وحللها يجد فيها الفاظاً عديدة تدل عَلَى ذكاء واضعها وصفات المتصفة بها . كيف لا وفيها . « زنى » و « مُرد » و « تمرد » وغير ذلك من مفاتح اسرارها . ولكننا لا نرمي الست هنداً بها لانها تكبر تارة عَلَى بعض معانيها وتارة تصغر عنها . ففي لغتنا وطريقتنا اذاً نحاول ان نغيها حقها .

الست هند ربيبة السوداء وعشيرة الرهابين . كأنها ادركت قول الشاعر . « ولكل شيء آفة من جنسه » فراحت تداوي سوداءها بسود الثياب وسود اللحى . وكانت تتداخل في سياسة الاديرة لسد فراغ في وقتها فتلعب بالرهبان كما تلعب بالقمار وتدخن الاركيلة عند جثة خصمها كما لو كانت تقرأ في ديوان احد شعرائها المحبوبين . وهي آية في الحفظ ؛ ترغب بالمطارحة وتحب المكافحة فترمي جليسها ببيت شعر من صفي الدين الحلي او زهير او الفارض فتصرعه وتحرق فؤاده . ثم تزجر الخادمة وتضربها لابطائها بكأس ماء او فنجان كنياك . ولم تكن في الناصرة امرأة تحسن مثلها لعب القمار ورواية الاشعار وسياسة الرهبان وزجر الخدم . والسبب في غوايتها وادوائها ظاهر بسيط . فقد تزوجت صغيرة . وخبرت الحياة

الزوجية صغيرة · وكبرتْ صغيرة · اجتازت اربع مرات جحيم الولادة قبل ان تجتاز الخامسة والعشرين من سنها · ولم يعش من اولادها غير واحد ربي منعماً · فنشأ مخنثاً · فشب شقياً · تلقن شيئاً من العلوم في كلية من كليات بيروت فدفنه في مواخيرها وقهاويها قبل ان يعود الى بيته · وتعرف برجال الشحنة وزار مرة السجن اتماماً لدروسه · وكان يدمن الخمرة احتراماً لابيه ويقامر حتى الفجر توقيراً لامه

ولقد طالما استلفت القس جبرائيل نظر الابوين الى ابنهما عارف وحذرهما من عواقب امره · فاغفلت الست هند نصيحة سلفها وكرهته لانه لم يكن مثل سائر الرهبان من عباد محاسنها · فلا يحضر مجلسها · ولا يحرق البخور امامها ولا وراءها · وما الراهب في عينها غير باب فرج للمرأة او ستر لسوءتها ومتى كانت المرأة مثلها كريمة المجتد ربيبة المجد ينبغي ان يكون الراهب خادماً لها واذا كانت جميلة ايضاً ففارساً من فوارسها ومجاهداً في سبيلها · ولكن محاسن الست هند ولت باكراً فلم يبقَ منها غير سحر في لحظها · وخلابة في لسانها · وحركة تُغري عند ادبارها

وكان بيتها صورة مجسمة لنفسها · يضج بالامتعة الفخمة النافرة بعضها من بعض · ويمثل في كل غرفة منه مأساة كل يوم · فترى الذوق مذبوحاً عَلَى الديوان · والترتيب مشنوقاً في الدار · والاقتصاد مجندلاً عند قدمي البذخ والاكثار ·

تظل الصورة مثلاً مائلة او مقلوبة عَلَى الحائط شهراً فلا تستلفت نظر

الخادمة اليها ولا تحفل بها · يجد الزائر السكاير مبددة عَلَى الدواوين والطوائل والكراسي فاذا احب اشعال سيكارة تفتش الخادمة ساعة عن علبة الكبريت· ثم تجيء والفوز يتلألأ في وجهها حاملة بملقط صغير جمرة كبيرة · ويدها اليسرى كالصينية تحتها · فتتفتت الجمرة · فتحرق يدها · ثم السجادة ثم الديوان · ثم ثوب الزائر · ولا ينجو من الحريق غير السيكارة السعيدة الطالع · في روض الست هند العاطر يذبل الورد عَلَى صدر امه ويموت · والاواني الصينية الفخيمة في بيتها تئن وتتأوه من الازاهر الاصطناعية فيها · في غرفة الست هند عَلَى مغسلة من الجوز فاخرة تزدحم قناني العطر والطيب· وحناجير الادهان والمعاجين · وعلب المساحيق · والادوية والزيوت لتحسين البشرة وتطويل الشعر · وليس هناك مقراض اظافر او فرشاة اسنان

وهذه امثلة صغيرة من غرائب هذا البيت وسيدته قبل ان دخلته مريم· ولم يمضِ عليها شهران فيه حتى تجلت في ترتيب فرشه وغرفه وامتعته واوانيه روح انيقة جديدة · وقد احدثت فيه ثورة لا بدَّ من تدوينها وبدعة في غرفة المائدة تستحق الذكر ·

دخلت مريم صباح يوم حجرة سيدتها تحمل باقة من الورد وضعتها في الاناء الذي كان فيه ازاهر اصطناعية ورفعته تبتهج وتقول · أليس الورد يا معلمتي احسن من هذا القماش الوسخ ؟ فاجابتها الست هند · بلى بلى؛ الحق معك · فسرَّت مريم باستحسان سيدتها وأقدمت عَلَى العمل الذي كانت تفكر فيه · ولقد طالما ثار ثائرها عَلَى الزهور الاصطناعية فوجدت

في بيت مبارك ما يكفي لاضرام نار الثورة في سبيل عرائس الحقول وربات الرياض . وكانت تأخذ كل يوم طاقة من تلك الطاقات الكبيرة التي تضيع الفاعلات في صنعها وقتهن الثمين وتخبئها في غرفتها وتضع في الاناء مكانها الصغيرة من ازاهر الجنينة ورياحينها ولما خلعت كل تلك العرائس الكاذبة من عروشها جمعتها ذات ليلة على السطح وسكبت فوقها ابريقاً من زيت البترول ودعت الخادمات رفيقاتها الى الجنازة . ولما حضرن اضرمت في تلك الحزمة النار واخذت بايديهن فرقصن حولها ضاحكات ومريم تصيح مقلدة تهويد الدوارين - خام وشيت ومقصور !

ولم يغظ هذا العمل الست هند مثلما غاظها قول مريم ان مغسلتها تفتقر الى فرشاة اسنان .

— يقطع عمرك ! وأين رأيت انت فرشاة اسنان ؟

— عند الرئيسة في الدير . وهي تنظف اسنانها صباح مساء . يا عمري ما اجمل اسنانها !

— اجمل من اسناني يا مريم ؟

— اسنانك يا معلمتي صفراء —

فاكفهر وجه الست هند وهمت بضربها فاستدركت الفتاة قائلة — لا تؤاخذيني ولكن الرئيسة لا تدخن بالاركيلة مثلك . الله يقطع الاراكيل فهي توسخ الاسنان .

— اسكتي . وقحة . ثرثارة !

وبعد ايام رأت مريم فرشاة اسنان عَلَى مغسلة سيدتها فضحكت وقالت في نفسها

— ما احلى معلمتي ! تشتمني وتقبل نصيحتي

والحق يقال ان الست هنداً تحب مريم سراً وتعجب بها · وتكرهها سراً ايضاً وتخشاها · لانها اجمل وابرع خادمة دخلت بيتها · وكانت اثنى زوجها عَلَى الفتاة تسكت او تغير الحديث

— يا هند ما رأيت زماني مثل هذا الترتيب في البيت · فنفرت قائلة

— وما علمك انت بالترتيب · لا تدلع الخدم فيفظل البيت مرتباً

فلم يحفل يوسف افندي بما قالت

— وهذه الازهار — جميلة ! جميلة ! كأن الجنينة جاءت تشاركنا بيتنا

— وانت تشارك الكل — هل يجي المطران الليلة ؟

— نعم · وسيجيء رئيس الدير ايضاً · والقائمقام

وذهب يوسف افندي الى محكمته وهو يفكر في الطريق بالفتاة مريم ويمثل لنفسه جمالها وذكائها وتفننها فيبتسم فؤاده جذلاً واعجاباً ·

اصدرت الست هند في ذاك الصباح اوامرها · فجاءت مريم تسأل الطابخة عن العشاء وألوانه فاخبرتها

— والنبيذ —

— وما غرضك من كل هذا — تتدخلي دائماً بما لا يعنيك — روحي الى شغلك

— دخيلك يا لطيفة اخبريني

— يا لطيف يا ستار ! مثل العاده يا بنتي · عرق وسبعلي مر · وقبرصي اصفر · وشمبانيا · خلصيني منك

فراحت مريم الى غرفة سيدها فاخذت من مكتبه قلماً ودواة وطلحيتين من الورق الشبيه بالرق الذي يستخدم في المحاكم واختلت ساعة في حجرتها ولم يدر احد بما صنعت · وبعد الظهر رتبت المائدة ترتيباً جميلاً فوضعت باقة من الورد في اناء على الخوان · وقرنفلتين واحدة حمراء واخرى بيضاء عند كل صحن والى جنبهما صحيفة مثبتة الى قدح تبدو منه فوطة المائدة كالزنبقة البيضاء وقد خُط في تلك الصحيفة بالخط الكنائسي ما يلي —

قالت الحكماء — « من قلّ طعامه صح جسمه وصفا قلبه »

—(ألوان الطعام)—

الفاتحة سنموره · قلب ارضي شوكه مكبوس · سلطه بطاطا وبيض · فجل افرنجي · زيتون شامي · عرق زحلاوي مثلث

الدور الاول شوربة بزلا · سمك مشط بطرطور · باميه خضراء بلحم وارز مفلفل · نبيذ سبعلي مر ·

الدور الثاني كبه ارنبيه · حجال مقليه ومطرزه بالفطر والبندوره · نبيذ قبرصي اصفر ·

الدور الثالث روستو عجل تشيعه كماة السنة · سلطة هندباء ورشاد· شمبانيا مُم ·

الخاتمة معمول · عيش السرايا · مشمش حموي وخوخ افرنجي

ولما جلس الضيوف الى المائدة اعجبوا باتقانها وترتيبها وادهشت قائمة الطعام حتى الست هند · فقال المطران والقائمة في يده

— هذا شيء جديد عَلَى المائدة العربية يا يوسف افندي

— الخادمة الجديدة يا سيدنا تجيئنا كل يوم بامر عجيب

— وهل هذه اختراعها ؟

— علمي والله علمك · اسألها

فقال القائمقام · لا شك ان الست هنداً —

فقاطعته ربة البيت قائلة — لا · وحياتك · لا علم لي بها

فاوقف المطران مريم وهي تقدم الشوربا وسألها قائلاً

— هل هذا خطك يا بنتي ؟

— نعم يا سيدنا

— ومن علمك كتابة هذه القائمة ؟

— رأيت واحدة بالافرنسية عند الرئيسة في الدير كانت تحفظها ذكراً لمأدبة حضرتها لما كانت في باريس · فخطر في بالي ان اكتب مثلها فيالعربية فتعرفون منها في الاقل ما يقدَّم لكم

— ولكن عادات المطاعم لا يجري عليها في بيوت الاماجد

— وهذه العبارة · قالت الحكماء

— قرأتها في كتاب · والراهبات في الدير دائماً يرددنها ويذكرن البنات بها · كنا نجوع اكراماً للحكماء ·

— واليوم اخذت بثارك منا · ها ها ها ! ما رأيت حياتي اذكى من هذه الفتاة اهنئك يا ست هند بها · وانصح لكم يا سادة ان تعملوا بقول الحكماء · يظهر من هذه القائمة ان يوسف افندي يريد بنا شراً

— لا اكراه ايها السيد لا في الدين ولا في الطعام

— ولكنا بشر يا ابني وضعفنا رأس مال ابليس

— انا استعفي من الدور الثاني

— ألتبرهن لنا يا سعادة القائمقام انك حكيم · لعمري ان الحكماء اضعف البشر وابليس يزدريهم ولا يحفل بهم

— الدور الثاني احسن ما في القائمة · هل الحجال صيد اليوم ؟ · نظر رئيس الدير الى الست هند ولاحت في عينه ابتسامة

— واذا كانت من صيد البارح ؟

— عفواً يا ست هند · لا تستثقلي التعنت من راهب معدته عاصية عليه

— وانت دائماً تبرطلها بالمآكل الضخمة

— بل اعدمها تأديباً لها وانتقاماً منها · ليت الراهب يستطيع ان ينزع معدته قبل دخول الدير · (ستأتي البقية)

تصحيح — في الصفحة ٤٤٦ ذُكر اسم الامبراطور السوري خطأ والاصح هليو غابال